

الاستراتيجية الثقافية المصرية

بين جهد طه حسين والرؤى المستقبلية

أ. د. عبد المنعم تليمة(*)

كانت العوامل التاريخية الثقافية جمة عندما أخذت مصر - مستدار انقريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين - تلتئم سبيلها إلى العصر الحديث . ولم تصغ بيان النهوض المصرى الحديث جهة ما رسمية أو شعبية ، إنما تجلى هذا البيان فى صياغات الجماعة المصرية الطليعية ، وتبدت هذه الصياغات فى إبداعات الكتاب والفنانين والشعراء وجهود المفكرين والعلماء وبرامج الساسة والقادة والحكماء ، ودارت تلك الصياغات فى الأمرين اللذين نهض بهما العصر الحديث : الحضارة الصناعية الحديثة ، والعقلانية النقدية التقيومية .

وفى فجر هذا القرن العشرين كان طه حسين بين طوائف من الطلائع العاملة فى صياغات بيان النهوض المصرى ، بيد أن مفردات من هذه الصياغة وجدت فى جهد طه حسين عبارتها الفريدة المؤدية :

- وجد طه حسين ، ورواد آخرون ، أن تكوين مصر قد كان من أبنية عرقية وحضارية وثقافية متعددة ، وأن توصلها بصورة قوية فى التاريخ البشرى قد كان ثمرة تفاعل تلك الأعراق والحضارات والثقافات ، وأن تعثرها كان تعثر هذا التفاعل وأن تقدمها كان فى صحة هذا التفاعل .

ووجد ، ورواد آخرون ، أن دخول مصر إلى العصر الحديث ، إنما يتم بتصحيح التفاعل وصولاً إلى وحدة الوطن ، وبإقامة بنية حديثة محورها التعليم ونهجها العقلانية .

(*) الأستاذ بقسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة القاهرة .

وعندما قضى طه حسين ١٩٧٣ لم تكن الجماعة المصرية ، من حاكمين ومحكومين جميعاً ، قد أفلحت فى توحيد الوطن بالتفاعل الصحيح والصحيح بين عناصره المكونة ، الفرعونية والقبطية والعربية الإسلامية ، ولم تكن قد أفلحت فى تحديث البنية الثقافية المصرية على محور العقلانية النقدية للتربية . واتسع المدى - فى ظروف عالمية جديدة - ونضجت غايات النهوض تطلب :

- المصالحة الوطنية العظمى ، بحيث ينهض تفاعل المكونات المصرية على أسس شعبية ديموقراطية ، يثمر برنامج تقدم مستقبلى .

- وبنية ثقافية عصرية ، ليس محورها التعليم فى معاهده ومدارسه فحسب ، بل يكون محورها العريض (العلم) المعاصر ، الذى ينتظم للتعليم المتقدم ، ويستمر طوول الحياة، فى ضوء ثورة العلم وتطبيقاته وتوسيع المعارف وتنقيتها .

المصالحة الإنسانية التاريخية ، بحيث تنهض مصر التى تتقدم بتوحيد عناصرها ، لتعمل مع غيرها من الأمم على توحيد العالم ، بمصالحة مدارها المحلورة ورسالتها التسامح والفران بين كل الاعراق والقوميات والديانات والثقافات والحضارات .

- ١ -

وجود مصر فى التاريخ البشرى وجود ثقافى ، وقلوب هذا الوجود الثقافى منذ البدء إلى يوم الناس هذا - فى حالات الصعود والضمود والنهوض - هو التفاعل . وبيان ذلك أن المرحلة الأولى من الحضارة المصرية - المرحلة الفرعونية - قد عاصرت مراحل أولى من حضارات قديمة أخرى ، خاصة فى أحواض الأنهار الكبرى بأودية الصين والرافدين ، بيد أن تلك المرحلة المبكرة من الحضارة المصرية قد سبقت ما عاصرها من حضارات إلى تشييد بنية ثقافية كان عطاؤها الثقافى فى تاريخ البشر هو الأعلى والأبقى ، فى الدين والعلم والإبداع والفكر . وكانت هذه البنية هى الأعلى والأبقى فى التاريخ لأنها كانت ثمرة صحة التفاعل بين عناصر جملة : تكونت الجماعة المصرية - اجتماعيا وتاريخيا - من عناصر محلية وأخرى وفدت

من أفريقيا ومواقع كثيرة من الصحراء ومن هجرات نزحت إلى مصر من غربى آسيا بعد تصحر طويل عانته مواطنها ، ولكى يمكن لكل هذه المجموعات البشرية - محلية ووافدة - أن تحيا على مصدر واحد للحياة النيل ، كان عليها أن تتعايش وأن تخلق لهذا التعايش صيغة توحيدية ، واستطاعت - بالفعل - أن تقيم أول دولة مركزية وأقوى وحدة اجتماعية تاريخية فى التاريخ القديم كله . وكانت هذه المجموعات البشرية تحمل عطاءات وقدرات ثقافية أولية مختلفة ، فتم تفاعلها داخل مصر ، وأثمر هذا التفاعل بنية إبداع ثقافى مصرى ، وهو - كما ذكرنا - الأعلى والأبقى فى كل العصور القديمة ، والعلماء والدارسون يجمعون على أن البناء المصرى ، تاريخيا واجتماعيا وثقافيا ، إنما كان ثمرة الوحدة التى نهضت على التفاعل بين مكونات وعناصر اجتماعية وثقافية جمة . ويجمع هؤلاء العلماء الدارسون على أن قانون التفاعل هذا يفسر كل تاريخ مصر فى جميع حالاته ، التقدم والتوقف والتراجع والنهوض من جديد ، ذلك أن صحة التفاعل بين عناصر الوحدة ومكوناتها كان يفضى - أبدا - إلى الازدهار ، وأن مرض هذا التفاعل كان يفضى - أبدا - إلى الانكسار . صحة التفاعل فى توازن العلاقات وسلامتها بين العناصر المكونة للوحدة ، ومرضه فى ظهور عنصر على العناصر الأخرى واستبداده بها وطغيانه عليها .

ولقد أبدعت الثقافة المصرية أقدم الصياغات فى الدين والعلم والإبداع الفنى والنظر الفلسفى . تأمل المصرى الكون وطمح إلى فهم ما وراء الواقع وإلى الوقوع على ماهيات الخلق والخالق والحياة والموت ، فكانت له تلك الرؤى الروحية والدينية المبكرة التى وجدت تجليها - فيما بعد - فى اليهودية والمسيحية والإسلام وفى الأنساق الفلسفية الشرقية واليونانية . وسدد المصرى النظر إلى الواقع ففحص بطن الأرض وظهرها ليوجه الأمواه وأنواع التربة وليدرك خصائص العناصر والمواد . فكان له ذاك الإبداع العلمى المشهود فى تاريخ العلم والرياضيات ، وكانت له تلك التجارب والخبرات التى بقيت مشهودة فى الأبنية والهياكل والمعابد والآثار ، وشغل

المصري بالعلاقات بين الناس فسعى سعيه لتحقيق التوازن الاجتماعي وإقامة الميزان، فكان له ذلك التراث الجليل من الحكمة وأصول العدل وروح القانون .

إن سبق الحضارة المصرية القديمة ، لا يعنى أن للمصريين صفات ثابتة أو طبيعة سرمدية تميزهم من غيرهم ، إنما يعنى أن عوامل تاريخية يمكن درسها - وقد درست بدرجة ما - قد أثمرت ذلك السبق . إن استمرار مصر فى التاريخ يفسره التفاعل بين العناصر المكونة لها ، بشريا وثقافيا ، وإن قوة مصر أو ضعفها يفسران بصحة هذا التفاعل واستقاماته أو بمرضه واختلاله ، وقد شهدت مصر فى تاريخها الطويل خلال عشرة آلاف سنة حقبا من القوة والوهن ، بيد أنها لم تشهد من الوهن مثل ما عانته فى القرون المتأخرة ، حتى أطلت على تخوم العصر الحديث .

ومعنى المجتمع الحديث التعدد : نشوء فئات وطبقات وقوى اجتماعية جديدة، تعبر عن نفسها فى مدارس واتجاهات وتيارات سياسية وفكرية ، وتقسيم مؤسسات تجعلها مسئولة عن حماية هذا التعدد ورعايته .

كان التطور من مجتمع كلاسيكى قديم إلى مجتمع عصري حديث معاناة تتعدد أسبابها ، إنما فى الصدارة منها الحكم المطلق ، ذلك لأن جوهر المطلق احتكار إدارة شئون المجتمع - بالمعنى الشامل للإدارة - وحرمان القوى الأخرى من المشاركة فى هذه الإدارة ، وثمره ذلك تعطيل المجتمع من الانتقال إلى العصر الحديث ، الحكم المطلق ضد التعددية ، فهو - إذا - ضد التحديث الحقيقى ، وثقافة المجتمع . وأول ما يصنعه الحكم المطلق ، يريد سندا لوجهته وغاياته . تجرى قراءة تاريخ الأمة بنهج انتقائى يفتش فى موروثاتها عن مبررات لوضعها الراهن ، وتدار الحياة الثقافية الجارية بنهج (واحدى) يثبت ما هو قائم ويفسر وجهاته ، ونتيجة الأمرين جميعا تعطيل طاقة الأمة الإبداعية وسد طريقها إلى المستقبل . من ها هنا كان السعى - فى المجتمعات المتنقلة إلى العصر الحديث - إلى الحرية . إن الحرية كانت العبارة عنها أول عنصر من عناصر الثقافة الجديدة فى هذه المجتمعات . وكلمة (النهضة) تدولت للعبارة عن سعى مصر لإقامة مجتمعها الحديث . والنهضة مفهوم

شامل ينتظم محاور الاستقلال الوطنى والوحدة الوطنية وإقامة المجتمع الحديث وبناء الثقافة الوطنية العصرية . ويمكن أن نصطنع مصطلحا علميا دقيقا معبرا عن مرحلة النهوض هذه فى التاريخ العربى وهو مصطلح (الثورة الوطنية الديمقراطية) ودقة هذا المصطلح هنا أنه يجعل (الديموقراطية) سبيلا إلى تحقيق الغايات الاستراتيجية للتكوين الوطنى فى هذا الطور من تاريخه . وما دامت الديمقراطية هى مشاركة الطبقات المختلفة وقواها السياسية فى إدارة شئون بلدها سياسيا ، فإن هذا يعنى أن قوة اجتماعية سياسية واحدة لا تستطيع وحدها أن تحقق تلك الغايات التى نكرناها ، ويتصل بهذا أن الاستراتيجية الثقافية لهذه الثورة إنما يحددها بدقة مفهوم (الثقافة الوطنية الديمقراطية) فالديموقراطية فى هذا الصدد معناها - إلى جانب الاتساع لكافة الاجتهادات والآراء والتيارات والاتجاهات والمدارس فى الفكر والعلم والسياسة والإبداع - الاتساع لموروثات كافة عناصر الأمة ، ومشاركة كافة الطبقات فى البناء الثقافى . ودفع التفاعل بين تلك الموروثات والمشاركات ، وإقامة المجاور بين كل أطراف الحياة الثقافية . وهكذا تنتهى إلى أن تألف ما هو تاريخى وما هو ثقافى يحدد غايات النهوض المصرى فى التاريخ الحديث بأربع : تحرير الوطن ، وتحديث المجتمع ، وتعقيل الفكر ، وتوحيد الأمة :

كان رفاعه رافع الطهطاوى أحد آباء الخط الوطنى العاطفى ، ولكنه بطاقاته الذهنية المتوقدة يؤصل حركة التنوير التى شهدتها مصر الحديثة ، ومعلوم أن مصادر رفاعه فى هذا الصدد فلاسفة حركة التنوير فى أوروبا ولا سيما مونتسكيو وكوندورسيه وأمثالهما من المفكرين الذين مهدوا للثورة الفرنسية .

وقاد محمد عبده حركة التنوير قبيل الثورة الوطنية العربية بأعوام قليلة إلى إن توفى سنة ١٩٠٥م وأثرت تعاليمه أثناء حياته تأثيرا خطيرا فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر عن طريق شيعته وتلاميذه : كتب محمد عبده يعرف الوطن : الوطن فى اللغة محل الإنسان مطلقا ، فهو السكن بمعنى استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها أى اتخذوها مسكنا ، وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنتسب إليه ويحفظ حقك فيه ، ويعلن حقه عليك ، وتأمين فيه على نفسك وآلك ومالك ومن أقوالهم فيه :

لا وطن إلا مع الحرية ، وقال لا برويز الحكيم الفرنسي : ولا وطن فى حالة الاستبداد ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب سنية ، وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذى فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية .. إن ياء النسبة فى قولنا مصرى هى من واجبات غيرة المصرى على مصر ... فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئاً ، ويشرب مريئاً ، ويبيت فى الأهل أميناً . وهو مقامة الذى ينسب إليه ولا يجد فى النسبة عارا ولا يخاف تعبيرا ، وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التى نصلت له بما أوضحناه من دخوله فى دور الحياة السياسية .

ومن ينعم النظر فى الفترة السابقة ثم يقرأ المقال كله يجد أنه تعريف متقدم جدا ، فقد تخلص تماما من النظر الدينى ووردت فيه أسماء الفلاسفة غربيين - كـ "لا" برويز الفرنسى - مما يدل على أن الشيخ محمد عبده قد تأثر بفكرهم السياسى والوطنى ، كما يبدو محمد عبده معلما منيرا لا تأثيرا مستغفرا ، وخاض محمد عبده غمرات الكفاح الوطنى - عمليا - باشتراكه فى الثورة فى مرحلتها القومية الأخيرة ومثل فيها دور الاعتدال والتوجيه وأفتى بشرعية عزل الخديوى توفيق لما لجأ إلى حراب الإنجليز ليوجهها إلى صدور المصريين ، وحوكم محمد عبده ونفى على بيروت ثم لحق بأستاذه جمال الدين الأفغانى فى باريس وأصدره العروة الوثقى ، وهناك اندمج التلميذ فى عمل صحفى سياسى بتأثير شخصية الأستاذ بيد أن حبوط جمال الدين فى عمله السياسى الثورى أصاب تلميذه محمد عبده بكرة شديد للسياسة ويأس من العمل المباشر فى ميدانها ، وعندما عاد من المنفى إلى وطنه طلق العمل السياسى الصريح ، وعاد إلى طبيعته الأصلية : طبيعة المعلم المنور العالم ، العامل على تحرير العقل عن طريق الإصلاح الاجتماعى والدينى والعلمى ، ورأى أنه لكى ينفذ مخططة التتويرى عليه أن يسالم المحتلين وأن يكون أسلوب العمل الوطنى الذى آمن به هو التدرج والأناة ، أما السياسة فالتريقة المثلى اجتتابها ومداراة أهلها وإقناعها بكل وسائل الإقناع الممكنة بأن الإصلاح العلمى أو الدينى المطلوب هو خير لبلادهم ورعاياهم ونافع لهم أو غير ضار بهم ، وحسب العالم المصلح تمكنه من

العمل فإن استطاع بهذه المسالمة والمحاسنة من مساعدة من الحكام بشرط ترك الحرب له فى العمل فذلك أفضل وأكمل كما فعل السيد أحمد خان ثم الشيخ شبلى النعمانى فى الهند ، والأستاذ الإمام بمدارة الإنجليز فى مصر . وعندما كان خصومه السياسيون يعيبون عليه موقفه اللين من الانجليز كان يرى .. أن استبداد السياسة لا علاج له إلا وحدة الأمة وجمع كلمتها ، وأن الطريق المستقيم الموصول إلى هذه الغاية هو تربيتها وتعليمها ، وهكذا فإنه رأى أنه لن يتم العمل الوطنى والإصلاح السياسى والنضج القومى إلا بإصلاح تربوى اجتماعى دينى على أسلوب من التدرج والأناة .

وامتد محمد عبده فى شيعته ومريديه وتلاميذه ، فأثرت تعاليمه على مفكرى التنوير المصريين الذين أصبحوا معلمين وقادة وسياسة وقادوا التطور المصرى فى النصف الأول من هذا القرن ، كان هؤلاء يؤمنون بأن الوطنية عمل دائب فى سبيل ترقية مصر فى كافة المجالات والميادين ، فهذا قاسم أمين أحدهم يحدد هذا المعنى : أن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيرا ولا تعلن عن نفسها عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم ، فيحسن بنا أن نقفدى بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل فماذا عمل قاسم ، أخرج كتابيه تحرير المرأة سنة ١٨٩٩ والمرأة الجديدة سنة ١٩٠٠م فاستحق عن جدارة لقب محرر المرأة . ومحتوى الكتابين معروف لدى الدارسين وإنما يعينى هنا أن قاسم أمين يعرض قضيته الاجتماعية من خلال أسلوب محمد عبده فى العمل الوطنى ، فتراه يصف حال مصر السياسية ليخرج إلى وسيلة من وسائل الإنقاذ وهى تحرير المرأة وتربيتها وتعليمها ، فهذه الوسيلة تضمن للوطن جيلا قويا حرا يصنع المجد لأمتة الطامحه إلى الاستقلال والحرية ، وهذا التأثير بفكرة محمد عبده - التى تقول بضرورة البدء بخلق جيل مستنير قوى حتى تحقق مصر طموحها - جعلت بعض الكتاب يذهبون إلى أن محمد عبده هو صاحب فكرة كتاب (تحرير المرأة) ولكن هذا القول ليس بشيء ، بل الصحيح أن قاسما تتلمذ لمحمد عبده ، وفى إحدى المرات اجتمع به فى سنة ١٨٩٧ فى جنيف ، وتلا عليه بعض فصول كتابه فى حضور سعد زغلول ولطفى السيد . ويؤمن قاسم - كبقية مفكرى التنوير فى

عصره - بالتدرج والأناة فى معالجة المشكلات الوطنية : إنى لا أقصد رفع الحجاب دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه اليوم فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفساد جمة لا يتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى ، وإنما الذى أميل إليه هو إعداد البنات منذ الصبا إلى هذا التغيير .

وجعل المنورون من أهم أهدافهم تأصيل الأسلوب العلمى الحديث - متأثرين بالغرب فى بحث قضايا الوطن ، ولقد اصطنع قاسم هذا الأسلوب - وبخاصة فى المرأة الجديدة ودعا إلى الأخذ به دعوة حارة مخلصه ، وكان من آباء الجامعة المصرية ، فقد حل محل سعد زغلول فى رئاسة اللجنة (لجنة إنشاء الجامعة) إلى أن مات ، ولقد ألقى خطابا أوضح فيه فكرة الجامعة : نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة نود أن نرى من أبناء مصر كما نرى فى البلاد الأخرى عالما يحيط بكل العلم الإنسانى ، واختصاصيا اتقن فرعا مخصوصا من العلم ووقف نفسه على الإمام بجميع ما يتعلق به ، فيلسوفا اكتسب شهرة عامة ، وكاتباً ذاع صيته فى العالم ، وعالما يرجع إليه الآخرون والمرشدون إلى طريق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون ، يقول إن المتقنين المنشودين هم مرشدو الأمة إلى طريق نجاحها وهم المديرون لحركة تقدمها ، فهل تعيد هذه الكلمات إلى أذهاننا قوله محمد عبده لأستاذه جمال الدين التى اقترح فيها تربية مجموعة من الرجال تربية قومية دينية سليمة لينطلقوا إلى بلادهم ويربوا جيلا قويا وهو قمين بتحرير الوطن ؟

الحق أن الفئة التى قادت حركة التنوير فى مصر الحديثة فى نهاية القرن الماضى وأوائل هذا القرن آمنت بضرورة تحرير العقل واصطناع الأسلوب العلمى فى نظر قضايا السياسة والاجتماع والتربية ، فإذا كان أصحاب الخط العاطفى يؤيدون العاطفة الوطنية بالدين فإن مفكرى التنوير يسندونها بالروح العقلانى المتأثر بالغرب ، ففتحت زغلول كان داعية تقدم تطورى ، آمن بضرورة وضوح الهدف الوطنى عن طريق الأخذ بالعلم ، فأخذ على عاتقه نقل عيون الفكر الاجتماعى والسياسى فى

الغرب إلى اللغة العربية ، نظر نظرة صادقة إلى حال الأمة وحكومتها فرأى أنها أحوج ما تكون إلى معرفة المثل الأعلى الذى تبغى الوصول إليه من نظمها السياسية والاجتماعية حتى تتحد أطماعها الوطنية على طريقة عامة واضحة .. ورأى فوق ذلك أن أول خطوة بخطوها المصلحون العلماء هى نقل العلم إلى أوطانهم بالترجمة .. إن هذه الطريقة كانت هى ألف باء النهضة العلمية فى كل أمة وفى كل زمان . ومن أشهر مؤلفاته حاضرمصريين وسر تأخرهم الذى ظهر أولاً باسم محمد عمر والآثار الفتحية وهى خواطر فى العلم والأدب والاجتماع ، وكان ينتخب مترجماته من الفكر الغربى الذى يصلح لحل مشكلة قائمة فى المجتمع المصرى الذى كان يعيش فيه . ومن أشهر الكتب التى ترجمها تقدم الإنجليز السكسونيين لأكمون ديمولين وسر تطور الأمم ، وجوامع الكلم ، وروح الاجتماع والثلاثة لجوستاف لوبون وأصول الشرائع لبنتام والإسلام خواطر وسوانح لهنرى دى كاسترى . وكان من خطته فى الترجمة أن يصدر كل كتاب بمقدمة تبين وجوه الاستفادة والتطبيق من هذا الكتاب فى مصر . وقد قام فتحى بكل هذه الجهود ليؤصل روح التقدم والتطور فى مصر وينشر فى الجمهور الأسس العلمية للرقى ، ولكن بأى مذهب سياسى آمن التتويريون ؟ إن الدارس يستطيع استخلاص موقفهم القومى وفكرهم السياسى من خلال كتابات أحمد لطفى السيد - مفكرهم السياسى فى صحيفة الجريدة ، وليس يعيننا كثيراً أن نؤرخ لحزب الأمة - صاحب الجريدة - ولا نقف طويلاً أمام تكوينه الداخلى بالنسبة لعنصرية - من الإقطاعيين والمتفقين - لأن لطفى السيد قد نجح فى أن يرتفع بموقف الأعيان فى الحزب إلى أن يفهموا معنى المصلحة الوطنية العامة ، ونجح كذلك فى إعداد شباب المتفقين فى زمنه إعداداً صدر عن مذهب اجتماعى سياسى ، وذهب حزب الأمة ولكن بقيت فلسفة لطفى السيد وفكره الاجتماعى السياسى وهو الذى يعيننا هنا فى المقام الأول كمثل لفكرة التتويرين بعامة . كانت عقيدة لطفى السيد السياسية بداية عالمية مستتيرة لفكرة الوطنية الخالصة من الغيبيات ، والتى تقوم على الفهم الصحيح والمنطق العقلى المجدد ، فبدأ بخطتين واضحين : أولاً : تأكيد أن مصر للمصريين وبلورة فكرة الوطنية المصرية ، ولانتهاء بذلك إلى رفض صريح للتبعية

السياسية للدولة العثمانية ولفكرة الجامعة الإسلامية وإلى زيف الاعتماد على أية دولة أوروبية لنيل حرية الوطن المصري ، يقول "إن أول وصف للقومية المصرية هو تحديد القومية الوطنية - نريد الوطن المصري - والاحتفاظ بها والغيرة عليها غير التركى على وطنه والإنجليزى على قوميته ويجب ألا نفع فى حبائل ذلك الوهم القديم الذى كان يراود أدمغتنا الوقت بعد الوقت إذ كان يزين لنا مرة أن فرنسا ستحرر بلادنا ومرة أن الدولة العلية ستقوى وبحقنا عليها تسفك دماء أبطالها لتخرج من بلادنا ثم هى بعد ذلك تتركنا لأنفسنا أحراراً نتصرف كما نشاء .. إن من الواجب أن نبعد الأمة من هذه الخيالات الكاذبة ونوجهها إلى أن تنمى فى نفسها عقيدة الاستقلال . وفى نفس الكتاب يقول أيضا : إن علينا نحن المصريين أن نترك فرنسا وإنجلترا والدولة العليا ولا نغير سياسة الخلاف ولا سياسة الوفاق أية أهمية ، علينا أن نعتمد على أنفسنا فقط فى الحصول على حقنا فى الدستور وحقنا فى الحرية ، ولابد لنا من ذلك ومن عزة ترباً بنا أن نطلب من غيرنا أن يأتى ليحرر نفوسنا من الرق وقلوبنا من عبادة القوى كأننا نبتغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام . وثانيهما التبشير بمذهب الحريين - الداعين إلى الحرية - وهو مذهب الديموقراطية الليبرالية ، للوقوف فى وجه الحكم المستبد عن طريق الإلحاح الدائب فى طلب الدستور والدعوة إلى التشكيلات الحزبية الحديثة القائمة على مناهج محددة ، يقول : والاستقلال بغير الدستور ، وبغير الحياة النيابية ، ناقص ولا كرامة ولا حرية لشعب لا دستور له ، وراح ينشر فى الجريدة عشرات المقالات فى معنى القومية المصرية وتعريف الرأى العام والأمة والدستور والحكومة والمناداة بكافة الحريات الديموقراطية من شخصية ، ومدنية والتأكيد على ضرورة حرية الفكر ، كما أكد ضرورة احترام الكلمة بمطالبتة بحرية الصحافة . وقبلت هذه العقيدة - كما فعل محمد عبده - الاحتلال على أنه حقيقة قائمة ولكنها مؤقتة تزول بزوال مسبباتها التى تتجمع فى أننا أمة متخلفة ، وإن فلا مفر إذا أريد أن نتخلص مصر من تخلفها من توجيه الاحتلال إلى خير مصر بالتعاون معه على إنجاز المخطط الاجتماعى السياسى المرسوم للترقية ، ويعنى ذلك مسالمة القوة الفعلية فى البلاد لا الاستسلام لها ، يقول لطفى السيد : وسياستنا مع

الإنجليز لا تخلو من أحد وصفين : إما سياسة عناد وعداء وأما سياسة مسالمة لا استسلام . ولا شك أن سياسة المعاندة عقيمة إذ كيف يقبل المعاند (بفتح النون) من المعاند (بكسر النون) حسابا على أعماله ، بل كيف يرجو العدو من العدو إصلاحا لحاله ، فلم تبق إذن إلا سياسة المسالمة والمحاسنة المقرونة بالمحاسبة ، ومهما يكن من أمر فإن التنويريين قد حملوا لواء القضايا الأساسية التي تعرض لأمة حديثة فى الظروف التي عاشتها مصر فى عصرهم ، وحاولوا جهد طاقاتهم بدافع الوطنية العالمية المستتيرة أن يصلوا إلى أنسب الحلول لتلك القضايا ، ولكن طبيعة الأشياء ومنطق التطور يقضيان بضيق القاعدة التي تحمل أفكارهم وتؤمن بها وهو ما حدث بالفعل فقد ضاق نطاق هذه الأفكار وانحصر فى خاص المصريين وخلصه متفهم . ومهما يكن من أمر ، فإن التنوير قد اتسع مداه بعد ١٩١٩م وشغل بأربع قضايا أساسية : العلاقة بالغرب ، وتجديد التراث ، وتحديث المجتمع ، وتحرير العقل . وخير بيان للنهوض المصرى فى هذه الحقبة ، هو بيان طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م) .

- ب -

لا خلاف على نبوغه وتفرد ، إنما الخلاف على أثر (بيان النهضة) الذى سطع فى جل أعماله حتى الإبداعى منها ، ذلك أن خصومه - من عامة المحافظين والنقلين - يرون بيانه هذا قد غرب الأمة وشد نهضتها إلى الدوران فى فلك الحضارة الغربية المغايرة المعادية ، أما نصرأوه - من عامة المجددين والعقليين - فقد تعددت قراءاتهم لهذا البيان تعدد اتجاهاتهم وقراءاتهم ، فمنهم من رأى أن بيانه قد أدى دورا مؤثرا ثم صار تاريخيا أثريا . ومنهم من رأى أن بيانه صوت من أصوات حاضر النهضة وطرف من أطراف تناقضات هذا الحاضر وصراعاته ، وسيبقى الخلاف على الرجل وأثره ما بقى الخلاف على وجهة النهوض العربى الحديث وآفاقه ، ها هنا فإن الخلاف ليس على طه حسين وأثر بيانه (النهضوى) ، إنما هو خلاف عريض على اتجاه النهضة أصلا ، والخلاف على طه حسين وأثره بعض من هذا الخلاف الأكبر ، ولما تتفاعل الاجتهادات الفكرية المختلفة الممثلة لقوى الأمة

ويشمر تفاعلها بيانا عاما للنهوض فإن بيان طه حسين يتحدد موضعه فى هذا البيان العام موضوعيا ، أكان صوتا عارضا يصيب ويخطئ فى حينه أم كان صوتا (تاريخيا) وواحداً من أسس النهوض بأسرها حتى تصل النهضة إلى غايتها ؟

وبدهى أن يختلف على (بيان) طه حسين ، فالرجل نموذج - النموذج الأعلى غير مدافع - للمفكر الفاعل الذى اصطنع الكتابة - مهما تكن تجلياتها الأكاديمية والنقدية والثقافية والإبداعية - سلاحا يخوض به معارك التحديث والتحرير والتعقيل والتوحيد ، وكان ذاتيا وموضوعيا مؤهلا لقيادة التفكير العربى الحديث فى هذه المعارك كلها : فهو عربى ، بدأت حياته مع بواكير النهوض العربى فى التاريخ الحديث وامتدت لتشهد المأزق العربى التاريخى حيث صارت الأمة بين أن تستعيد مبادرتها فى التاريخ البشرى أو أن تنتهى (تابعة) وتذهب ربحها ، وهو إنسانى استوعب فكر العالم الحديث وامتدت حياته ليتصل بالأصول الفكرية العامة للثورات الثلاث ، بقايا الثورة الزراعية وهى تنقوض ، وازدهار الثورة الصناعية وهى تتقدم ، وبزوغ فجر ثورة الاتصال والانتقال والمعلومات التى تنتقل بها البشرية إلى نظام عالمى جديد .

والنهضة مفهوم شامل ينتظم محاور الاستقلال الوطنى والوحدة القومية وإقامة المجتمع وبناء الثقافة الوطنية ، ويمكن أن نصطنع مصطلحا علميا دقيقا معبرا عن مرحلة النهوض هذه فى التاريخ العربى وهو مصطلح (الثورة الوطنية الديمقراطية) ودقة هذا المصطلح هنا أنه يجعل (الديموقراطية) سبيلا إلى تحقيق الغايات الاستراتيجية للتكوين العربى التاريخى فى هذا التطور من تاريخه ، وما دامت الديمقراطية هى مشاركة الطبقات المختلفة وقواها السياسية فى إدارة شئون بلدها سياسيا ، فإن هذا يعنى أن قوة اجتماعية سياسية واحدة لا تستطيع وحدها أن تحقق تلك الغايات التى ذكرناها ، ويتصل بهذا أن الاستراتيجية الثقافية لهذه الثورة إنما يحددها بدقة مفهوم (الثقافة الوطنية الديمقراطية) فالديموقراطية فى هذا الصدد معناها - إلى جانب الاتساع لكافة الاجتهادات والآراء والتيارات والاتجاهات والمدارس فى الفكر والعلم والسياسة والإبداع - الاتساع لموروثات كافة عناصر

الأمة ومشاركات كافة الطبقات فى البناء الثقافى وبدفع التفاعل بين تلك الموروثات والمشاركات ، وإقامة المحاور بين كل أطراف الحياة الثقافية وهكذا تنتهى إلى أن تألف ما هو تاريخى وما هو ثقافى غايات النهوض العربى فى التاريخ الحديث بأربع : تحرير الوطن ، وتحديث المجتمع ، وتعقيل الفكر ، وتوحيد الأمة .

صدرنا هذا البحث بأن جمهرة المفكرين العرب المحدثين قد قبلت - بمعارك فكرية معروفة ومشهودة - بيان طه حسين النهضوى بتفاوت يضيق ويتسع من تيار إلى آخر ، وبوقفات نقدية عند هذه المفردة أو تلك من مفردات البيان . بينما تصدى فريق من الغلاة لنقض هذا البيان ورفضه . وفى كل الأحوال لم يكن من المستطاع درس هذا البيان إلا بعرضه على حقائق النهضة ذاتها ، ولذا وقفنا طويلا - الوحدة العربية - عند معالم ثورة العالم الحديث الصناعية وما ارتبط بها - فى العلاقة بالعالم العربى ومجمل العالم الثالث - من ظاهرة استعمارية حتى وصلنا إلى بواكير الثورة الثالثة الراهنة وما تفرع من سعى إلى نظام عالمى جديد ، ووقفنا طويلا - الوحدة الثانية - عند الانتقالات الكبرى - صعود ، خمود ، نهوض - فى تطور التكوين العربى التاريخى لنحدد غايات الحلقة الأخيرة من هذا التكوين وهى حلقة النهضة ولنرى العوامل الفعالة فى اتجاه تحقيق هذه الغايات أو تعطيلها ، وكان سبيلنا فى ذلك الوصول إلى معايير منهجية منضبطة لدرس بيان طه حسين النهضوى درسا موضوعيا ، تعين هذه المعايير فى وضع رؤية طه حسين الاستراتيجية موضعها تاريخيا ، كما أنها تعين فى صياغة مقدمات ضرورية لتحديد هذه الرؤية ودرسها . ونرى استخلاصا من الحقائق العامة فى الوجدتين السابقتين . إن هذه المقومات ست : الأولى أن المفاهيم الأساسية المتصلة بالتكوين العربى فى حلقة نهوضه فى العصر الحديث لم تتحدد بعامة فى التفكير العربى النهضوى حتى اليوم بصورة مستقرة ، وإنما حددنا هذه المفاهيم - اجتهدا - فى الوحدة الثانية من بحثنا هذا ، لنعرض عليها مفردات بيان طه حسين فى هذا السبيل . ولنلمس قلق هذه المفاهيم فى هذا البيان - كما سنرى - وعدم استقرارها ، وآية ذلك التنازع الذى هيمن على هذا البيان بين مفهومي الوحدة المحلية الوطنية والوحدة القومية العربية . والثانية أن

عدم استقرار المفاهيم يصل في بعض الأحيان إلى بروز تناقض في بنية البيان .
وآية هذا الأمر العلاقة بالآخر ، الغرب تحديداً . فبينما كانت غايات النهوض تطلب
البناء الوطني والقومي المستقل كانت بعض مفردات بيان طه حسين - في بعض
مراحل تشكل هذا البيان - تكاد تنحو نحو التسليم بانفردا النموذج الحضاري الثقافي
الغربي في العصر الحديث . وهذا التسليم ، وإن كان في بعض المراحل ، يوقع البيان
في شيء من الولاء الثقافي الحضاري المزدوج . والثالثة أن الباحثين لن يجدوا بيان
طه حسين مستقيماً في كل حال ونقياً في كل مرحلة ، وإنما هو بين تقدم عال ونقص
ملموح ، وآية ذلك أنه بيان في مجمله ليبرالي جذري تكاد بعض مفردات منه - في
بعض الأحيان والمراحل - تكاد تسلم بوجود (المستبد العادل) . والرابعة أن الباحثين
لن يجدوا بيان طه حسين النهوضي مصاغاً كاملاً في أثر بعينه من آثار الرجل ،
وإنما هو مبدد في مجمل آثاره . كما أنه مبدد في حقول معرفية متعددة ، قد يجد
الباحثون مبدأ التفاعل ساطعاً في (على هامش السيرة) ، وقد يجدون البناء الثقافي في
(مستقبل الثقافة في مصر) بيد أن فكر الفوضى بكامله إنما يلتبس في كل أعماله .
والخامسة أن الرجل لم يصنع بيانه متأملاً وإنما صاغه منازلًا مبارزاً ومقاتلاً ، إن
بيانه ثمرة لمعارك فكرية كبرى ، لقد اتخذ طه حسين سبيل العقلانية الأوروبية في
بواكير نهضتها الحديثة ، لكنه صدر في معظم عمله - بتفتح باهر - عن الجانب
العقلي العربي الإسلامي ، فلم يكن بعيداً عن طريق الأصوليين والمعتزلة والفقهاء فبدأ
مكتتما مكاسراً . وانتقل بتلك الطرائق من أعمال العقل - مستنداً في حكمه إلى
صحيح النقل - لتثبيت العقائد ودفع الشبه ، وإلى إعماله للفضل في مسائل العصر
المثارة أي أنه انتقل بالعقل من مجال المشكلة الإلهية والدينية ، إلى مجال المشكلة
الإنسانية والاجتماعية ، فبدأ عقلانياً عصرياً جسوراً ومن شأن المعارك ألا تدع مكاناً
فسيحاً للتأصيل الهادي وأن تفتح السبيل للغلو والقطيعة ، ولقد مست كل هذه الأمور
بيان طه حسين ، بيد أن ما عصمه - هذا البيان - من هيمنتها (أكاديمية) رصينة
حازمة تبثت في عشرات الآثار . والسادسة أن بيان طه حسين متطور بتطور
النهوض العربي الحديث . هو بيان ينتظم مبادئ عامة أساسية لأنه واحد لمفكر واحد،

ويبدو أنه كان في ذات الوقت استجابة لأطوار وانتقالات ومراحل ، لذا يضره الاجتزاء والانتقاء ، والشأن في هذه المقدمات الست الضرورية ليس المفهومات المجردة ، وإنما هذه المفهومات باعتبارها عاكسة لأوضاع وملابسات اجتماعية تاريخية في التاريخ العربى الحديث وفى علاقة للنهوض العربى بالمتغيرات الكبرى فى العالم الحديث والمعاصر . ولقد أوجزنا هذه المقومات لأن تفسيرها للتاريخى الاجتماعى مقدم فى الوجدتين الأوليين من هذا البحث ، ومهما يكن من أمر فقد تقدم للتفسير ثم مهدت هذه المقومات الست لمعالجة مفردات بيان طه حسين وجعلت هذه المعالجة قريبة موجزة .

تشغل الوطنية المصرية الإقليمية قطعة كبرى من بيان طه حسين بخاصة فى مرحلته المبكرة ، (والحقيقة) المصرية - لديه - إنما هى ثمرة لقومية متفردة وشخصية متميزة ، ويفسر طه حسين هذا التفرد والتميز بعاملين ثابتين : عامل بشرى إنسانى (العقل المصرى - عنده - متفوق تفوق العقل الأوروبى فى أوقات النهوض المصرى (والاستقلال) وعامل جغرافى طبيعى (مصر - عنده - قلب العالم) والثقافة المصرية التى : "... هى موجودة ومتميزة بخصائصها التى تتفرد بها عن غيرها من الثقافات .." تعكس للشخصية القومية لمصر ، كما تعكس جوانب إنسانية عامة ، إذ إن فى المصريين من أسس هذه البنية العقلانية بتعميم التعليم المدنى الحديث وتطوير التعليم الدينى التقليدى . ومن أسسها الوطنية بالكشف عن العناصر الثقافية الموروثة للمصريين ، وبخاصة فى موروثة المسلمين والأقباط وصولاً إلى ثقافة وطنية أساسية للمصرى الحديث ، ومن أسسها الديمقراطية، وبالمساواة فى فرص التعليم والتمتع بالمنتج الثقافى ، وينفى معيار الصفوة الممتازة والغنى والفقير فى هذه الفرص. وقد سدد بيان طه حسين - فى هذه المسألة - هجمات قوية إلى رواسب الثقافة المتخلفة ، وإلى ما كان يسمى إليه الاستعمار الإنجليزى فى الثقافة المصرية ، وإلى العنصريين من مفكرى الغرب الذين فرقوا بين عقل شرقى متخلف وعقل غربى متقدم فطرة . وكان منزع طه حسين فى كل ذلك اجتماعياً إصلاحياً واسع الأفق فطلب نفي المعيار الطبقي الحاد ، كما طلب وحدة المصريين وتماسك المجتمع

المصري ، عن سبيل وحدة الثقافة الوطنية المصرية . لكن بيان طه حسين فى صياغة هذا الأمر لم ينج من مثالية عندما رد شخصية مصر إلى روح خالد غامض وإلى ملامح ثابتة جامدة ، والحق أن العلم لا يعرف خصائص ثابتة لأية مجموعة تاريخية من البشر ، لأى مجتمع ، ولذا فإن العلماء يتخرجون إزاء مفهومات مثل : الشخصية القومية (والخصوصية التاريخية) .. الخ من وجوه التخرج أن العلم قد اكتسب الصلة بين المطلق والنسبى ، وبين الثابت والمتغير فأصبح القول بروح خالد أو بأصول ثقافية مطلقة أو بلامح ثابتة لشعب ما قولاً لا يقبله العلم ، بيد أن اكتشاف العلم للصلة بين المطلق والنسبى وبين الثابت والمتغير قد أزال كثيراً من التخرج ، إذ وضع العلماء فى ضوء ذلك الاكتشاف - ضوابط لهذه المقومات جعلتها (مصطلحات) معتمدة فى كثير من البيانات العلمية ، فضابط للخصوصية التاريخية) لمجتمع من المجتمعات ، هو التعرف على ما يفسرها من تركيب اجتماعى واقتصادى ، وعلى ما يفسر تغيرها من مرحلة إلى مرحلة فى تاريخ هذا المجتمع ، ليست الخصوصية هنا جامدة سرمدية ، إنما هى متغيرة تاريخياً ، تنتظم عناصر ثابتة هى سبب بقاء المجتمع وعناصر متغيره هى سبب تطوره ، وامتلاك الوعى الإنسانى لهذه المعرفة هو أداته للتقدم . إن التعرف يقضى إلى التفسير وعلى هذا فإن (الشخصية القومية) لمجتمع من المجتمعات إنما تنهض على عمادين (جغرافى طبيعى - بشرى إنسانى) ثابتين نسبياً ، وعلى عماد اجتماعى اقتصادى (تاريخى) متغير ، ويتأسس على هذا أن التفتيش عن (لامح وخصائص) لمجتمع ما ممكن إذا اعتمد التغير من مرحلة إلى مرحلة فى تاريخ هذا المجتمع نهجاً ، وإذا تنكب طريق التجميد والتنشيط المجردين لبعض السمات والخصائص الظاهرية .

ويظل التكوين التاريخى واقفاً عند الوطنية المحلية فى المراحل المبكرة من تشكيل بيان طه حسين ، ثم أخذ البيان على مهل يمس التكوين العربى ، بيد أنه لا يمس من جهة القاعدة الاجتماعية التاريخية للأمة ، وإنما من جهة البنية الثقافية ، بل إن تناول البيان فى تلك المراحل للبنية الثقافية القومية يكاد يقف بها عند توحيد التعليم فى الأمم العربية ، وذلك لأن هذه الأمم لها لغتها الواحدة وهى العربية ، ويعلو صوت

البيان وهو يؤكد ضرورة توحيد التعليم العام في البلاد العربية ، ويرى أن هذا التوحيد أهم مقوم من مقومات العروبة ، بيد أن البيان في مسألة التعليم العربي العام الموحد ينبه إلى أن التوحيد في الجوامع المشتركة ، أما ما يتصل بالشخصية الوطنية لكل إقليم فيظل معكوساً في برامج التعليم الإقليمية (الوطنية) : ومن المحقق أن هذه الفكرة يجب أن تقوم على احترام الشخصيات الوطنية للأمم العربية ، بمعنى أن اتحاد برامج التعليم والثقافة لن يغير ما ينبغي أن تعنى به كل أمة من جعل تاريخها الخاص وجغرافيتها الخاصة أساساً للدراسة فيها ... وبعد هذه المراحل الباكورة شرع البيان يتحدث عن نهضة عامة شملت البلاد العربية ... الشرق العربي كله ناهض في هذه الأيام . وليست نهضته سياسة محضة . وإنما تجمع إلى السياسة العلم والأدب والاقتصاد والنظم الاجتماعية على اختلافها ، لكن حديث البيان هنا يشير إلى نهضة مجموعة تاريخية واحدة من البشر ، أمة واحدة . لكن التكوين العربي يتطور في التاريخ الحديث ، كذلك يتطور بيان طه حسين في مفرداته المتصلة بنهضة الأمة ، بل يتطور هذا البيان تطوراً يطول فيها مبدأ التفاعل الذي جعلناه في وحدة سبقت من هذا البحث أساس التكوين العربي تاريخياً وثقافياً ، وصارت صياغة بيان طه حسين لمفهوم الأمة على هذا النحو .

والقومية العربية ، إذ أردنا أن نعرف متى تكونت بالمعنى الدقيق لكلمة القومية ، فينبغي أن نرد هذا إلى ظهور الإسلام ، فالمكون الحقيقي للوحدة العربية بجميع أنواعها وفروعها : الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية أيضاً إنما هو النبي ﷺ ... وبعد أن أتم النبي توحيد الأمة العربية ونهض خلفاؤه من بعده جعلت هذه القومية العربية تتجاوز الجزيرة العربية إلى الأقطار الأخرى ... وسكان هذه الأقطار كانوا يتكلمون لغات مختلفة جداً كان الفرس يتكلمون لغتهم الفهلوية . وكانت للشام لغات سامية ، وكذلك في العراق وفي الجزيرة . وكان المصريون يتكلمون لغتهم القبطية ، وكانت لغة الثقافة والسياسة في البلاد الشامية والمصرية هي اللغة اليونانية . ولغة السياسة والثقافة في العراق وبلاد فارس هي اللغة الفارسية ، ولغة الثقافة والسياسة في شمال أفريقية وفي أسبانيا كانت هي اللغة اللاتينية .. وإن

هناك قومية عربية جديدة أنشأها الإسلام ، لم تكن تأتلف من عنصر عربي خالص ، وإنما كانت تأتلف من جميع هذه العناصر ، من العناصر التي كانت تسكن كل هذه البلاد ، فأنشأ الإسلام إذن أمة جديدة وجعل هذه الأمة العربية ، عربية اللغة ، عربية التفكير والشعور ، عربية الحضارة ، وعربية العلم والثقافة والأدب ، ومن المحقق أن البلاد التي يتألف منها العالم العربى الحديث لا يمكن أن تكون حقا مؤلفة من عناصر عربية خالصة تنسب إلى عدنان وقحطان ، وإنما هي عربية بلغتها ، عربية بشعورها وعقلها ووجدانها ، وعربية بدينها سواء أكان هذا الدين إسلاميا أم كان نصرانيا . هي عربية بهذا كله ، أثرت العروبة على غيرها وأصبحت أمة عربية جديدة ، ولا ريب فى أن النظر الفقهى إلى هذه الصياغة يقف طويلا عند قلق المفهومات والمصطلحات وأسانيدھا ودلالاتھا الاجتماعية والفكرية والتاريخية ، ومعلوم أن التفكير العربى الحديث قد قطع فى عقود قليلة شوطا طويلا فى تدقيق هذه المفهومات والمصطلحات فالانتقال معروف من الجامعة أو الرابطة الشرقية مطلقا ، إلى الجامعة أو الأمة الإسلامية ، إلى المعنى التاريخى القومى لأمة العرب ، كذلك الانتقال من الشرق مطلقا ، إلى الشرق العربى ، إلى الوطن العربى ، ويرتد - الأمر فى جملة إلى تطور البنية العربية ذاتها فى العصر الحديث ، تاريخيا وثقافيا .

ولقد رأينا أن بيان طه حسين يكاد يقفز فى صياغة التكوين القومى التاريخى عند البعدين الثابتين نسبيا وهما البعد الطبىعى الجغرافى والبعد البشرى الإنسانى ، أما البعد المتغير وهو البعد الاجتماعى فيشعب لديه شحوبا ملموحا ، وهذا يوقع البيان فى معالجة هذه المسألة فى نظر مثالى بين ، ومع ذلك فإن صياغة أبعاد التكوين العربى التاريخى بأبعاده الثابتة والمتغيرة تتخذ قطعة محدودة فى هذه البيان إلى جوار المساحة الهائلة التى تتخذها البنية الثقافية ، ويسطع مشكل القديم والجديد فى صياغة البيان للبنية الثقافية ، ويقترب هذا المشكل فى كثير من المواضع بمشكل (الشرق والغرب) وكما شحب البعد الاجتماعى فى صياغة التكوين التاريخى فى بيان طه حسين النهوضى ، فإن صياغة البيان للتكوين الثقافى تشحب فيها أبعاد هامة ، فعلى الرغم من أن طه حسين يتخذ من مشكل (القديم والجديد) مناسبة - إلى جانب تأصيل

التجديد الفكرى والأبى - لمنازلة قوسى المحافظة اجتماعيا وفكريا ، إلا أن صياغة المشكل فى بيانه يشحب فيها (البعد الواقعى) أحيانا ذلك أن القديم فى البيان هو الموروث العربى القديم ، وكما أن الجديد هو المنتج الغربى الحديث ، ويتبدى المجتمع العربى الحديث فى هذا المنظر وعاء فارغا تصب فيه موروثات ومنتجات جاهزة سلفا ، ولا تتبدى حقائق هذا المجتمع الراهنة وعلاقاته وقواه معكوسة فى منتجه المستحدث إلا فى بعض مواضع من البيان وفى بعض مراحل . كذلك يشحب البعد الجدلى فى صياغة البيان لمشكل الشرق والغرب ، ولا تتبدى استقلالية المنتج الثقافى العربى الحديث إلا فى بعض مواضع من البيان ، وفى بعض مراحل تشكله وصياغة البيان للمشكلين جميعا على هذا النحو :

كانت نهضتنا الحديثة تمتاز بخصلتين أساسيتين هما خضوعهما لتيارين :
يأتى أحدهما من أعماق التاريخ الإسلامى العربى منذ ظهور الإسلام إلى القرن التاسع عشر . ويأتى الآخر من وراء البحار ، من حيث توجد البلاد الأوروبية التى تقدمت وسبقتنا إلى الرقى وازدهرت فيها العلوم والآداب .

تألفت الحياة العقلية من عناصر ثلاثة أولها عنصر الرجوع إلى القديم لإحياء ما يصلح الحياة منه وصوغه فى الصياغة المعاصرة التى تلائم ما طرأ على القلوب . العقل من تغير وتلائم الظروف لجديدة التى تخالف تلك الظروف التى أحاطت بالقديم حين أنتجته الأجيال الماضية ، والثانى الاتصال بالحياة العقلية المعاصرة فى الحياة الأجنبية لاستخلاص ما يلائم مزاج الشعب منها ولتغذية هذا المزاج بها ، وتمكينه من أن يثبت وينمو يصفو ويمضى فى سبيله إلى الرقى غير متكئ ولا متعرض للجمود والخمود ، والثالث الإنتاج الخاص الذى يصور شخصيتنا وما يكونها من العواطف والأهواء والميول ومن الخواطر والأفكار والآراء ، محتفظا فى هذا كله بما لا بد من الاحتفاظ به من الخصائص الموروثة ، ملائما بينه مع ذلك وبين ما يطرأ من حقائق التطور ومظاهره .

نحن نختصم فى الجديد أو القديم ، نسرف فى الخصومة ونغلو فى التفسير والتأويل ، على حين يدفعنا الزمان فى طريق التجديد دفعا لا سبيل إلى الإفلات من

قوته ، ولكنى وقفت عند ظاهرة لعلها تستحق أن يقف عندها النقاد والمفكرون ، وهى الشكل العقلى الذى تأخذه الصلة بين الشرق والغرب هذه الأيام ، فقد كنا منذ حين نتأثر بالغرب ونسعى إليه ونقتبس منه ونريد أن ننقله إلينا - إن صح هذا التعبير - وكان هذا السعى يقنى شخصيتنا أو يكاد يفنيها ، فإذا نحن غربيون فى تفكيرنا وتعبيرنا وحياة عقولنا وقلوبنا ، وإذا حظوظنا تختلف من هذه الغربية قوة وضعفا : منا من يحسن التقليد ومن يسيئه ، وكان ضعف شخصيتنا هذا يفيضنا إلى المحافظين من أهل الشرق ويزهدهم فينا ، وكان يشير فى نفوس المجددين من أهل الغرب حبا لنا يشوبه العطف والإشفاق ، وكنا نضيف ببعض أولئك وحب هؤلاء ، ونتمنى لو نقف من أولئك وهؤلاء موقفا طبيعيا لا حرج فيه ولا تكلف ولا ضيق . كذلك كانت حال كتابنا وشعرائنا فى هذا العصر الحديث حيث كانوا يريدون التجديد أو يذهبون إليه ، ولكن الأمر تغير فى هذه الأيام فقويت شخصية الكتاب والشعراء حتى آمنت بنفسها وآمن بها الناس من حولها فى الشرق والغرب جميعا .

ولقد تبين مما سبق أن البيان النهوضى لدى طه حسين قد انتظم مفردات واستخلاصات ومقولات ارتبطت بملابسات وفتية فى زمانها كما انتظم رؤى استراتيجية عامة تظل ما ظلت مرحلة النهوض العربى ساعية إلى تحقيق غاياتها التاريخية ، وإذا كانت الديمقراطية شوقا إنسانيا رفيعا ، فإنها عماد أول للنهوض العربى خاصة ، فهى - الديمقراطية - أداة التفاعل بين عناصر التكوين العربى من قوميات وحضارات وثقافات وديانات وقوى اجتماعية وسياسية وتيارات فكرية ومدارس علمية وإبداعية . لهذا فإن الديمقراطية سبيل وحيد - فى الوطن العربى - إلى تعقيل الفكر وتحديث المجتمع وتحرير الوطن وتوحيد الأمة . وعلى الرغم من المقدمات الست التى مهدنا بها لدرس بيان طه حسين ، فإن هذا البيان يتبته بعد الحرب العالمية الثانية - نهايات الثورة الصناعية وبزوغ فجر الثورة الثالثة - إلى معضلة الديمقراطية فى العالم ويستشرف أفق مستقبل أت تنهض فيه الشعوب بإدارة شئون بلادها ، ما أكثر الهول الذى صب على الناس فى هذا الحرب . ولكن ما أعظم الرقى الذى أتاحته هذه الحرب للناس . هو رقى منكر بالقياس إلى هذه الأجيال

الحاضرة ، ولكن الأجيال المقبلة التى لم تشهد الحرب ستفيد منه خيرا كثيرا ، سعة فى الحيلة لقهر المصاعب والتغلب على العقبات ورقيا ماديا هائلا فى إلغاء مسافات الزمان والمكان جميعا ، ورقى هذا الشعور بالحاجة إلى العدل الاجتماعى والسياسى ، وفى الميل إلى تحقيق هذا العدل وفى تعجيل تحقيقه ، ورقى الشعور بأن سياسة الشعوب يجب أن تنصير إلى الشعوب ، ولا تظل محتكرة لطبقة بعينها من الطبقات ويظل بيان طه حسين من هذه الجهة صوتا باقيا ، ويظل طالبا للدرس التحليلى النقدى والتقويمى على مستويات متعددة : لغوية وفكرية ومنطقية واجتماعية وتاريخية .

- ج -

التجربة المصرية فى التاريخ البشرى مثال فريد يمكن أن يعين فى الشعور حركات الصعود والخمود والنهوض فى تجارب المجموعات البشرية - المجتمعات والشعوب الأمم - منذ فجر التاريخ إلى يوم الناس هذا ، ويمكن أن يعيش فى بيان العوامل الفاعلة فى تلك الحركات وفى استخلاص العبر والدروس والنتائج ، ودرس هذه التجربة المصرية نهضت عليه - وتنهض - جملة من العلوم والحقول الأكاديمية ، وفرغ له - وفرغ - آلاف العلماء عبر القرون الخمسة الأخيرة ، ونشرت فى نتائجه آلاف الأعمال العلمية الباقية . بل إن الجانب الأثرى من هذه التجربة تقسوم عليه - وحده - أقسام علمية مستقلة فى كبريات جامعات الدنيا . ولسنا - فى مقامنا هذا - بمستطيعين القول فى كل ذلك ولا فى شئ يسير منه ، لأن له أصحابه وأهله ومقاماته . إنما حسبنا هنا أن نقول فيما يتصل بما نحن بصده ، أى فيما نراه مفسرا لوحدة التجربة المصرية ، إن الوعى بهذا يقبل هذه الوحدة من مرضها الراهن ، ويفتح السبل أمام عافيتها فى المستقبل . إن لهذه التجربة قانونا ، وإن قانونها هو (التفاعل) ، التفاعل فى ذاتها وفى علاقاتها ، بين عناصرها المكونة لبنيتها الداخلية من ناحية ، وبين أطراف عالمها الذى تنشط فيه من ناحية ثانية ، وكان الأصل هو التفاعل بين عناصر الذات المكونة للمجموعة المصرية ، فكان هذا التفاعل إذا صح صحت البنية المصرية الثقافية التاريخية ونهض المصريون بدورهم فى التاريخ ، وإذا مرض وهنت البنية وتراجع دور المصريين . صحة الذات كانت شرطا لصحة

العلاقات ، ومن ثم كان نهوض مصر أحد شروط نهوض العالم ، وربما أوغلنا برفق في بسط القول في قانون التفاعل هذا . القول هنا إن التفاعل كان يهن ، وربما يتوارى ، وربما يحل محله نقيضه (النفي المتبادل) عندما كان أحد عناصر الذات يطغى على العناصر الأخرى ، ويسعى إلى الظهور عليها ، وربما إلى إنكار جذورها الثقافية والتاريخية ومن ثم إنكار وجودها الاجتماعى السياسى ، لاحتكار إدارة شئون الجماعة وحده ، وتوجيه هذه الإدارة لصالحه . فى تلك الحالات ، كانت البنية المصرية تضعف ، وربما تتوقف ، وربما تتخلف ، وها هنا كانت علاقاتها بأطراف العملية التاريخية فى عالمها تقسد ، ومن ثم كان ضعف مصر أحد النذر بضعف العالم . لسنا فى حاجة إلى أدلة كثيرة تصادف على ذلك للقانون الذى وصفناه وتشهد له ، فكل ذلك مبذول يجده من يطلبه فى مصادره ومظانه . يكفى هنا ما انتهت إليه تلك المصادر والمطان وما ينتهى إليه اجتهادنا فى النظر فيما جاء بها من مواد وما استخلصته من نتائج . كانت البنية الثقافية التاريخية المصرية أول بناء حضارى عرفه التاريخ البشرى المدون . تراكت خبرات تقنية فى التعامل مع الطبيعة ، واستخلصت معارف علمية فى تنظيم حياة البشر وفى صلاتهم بالكون ، وتأسس تصور أسطورى للوجود ، فلما نضجت البنية واستوت دقائق نحتها صاغت أول أيديولوجية شاملة للعالم ، صارت مصر فى صحة بنيتها وسلامتها - تفكر للعالم . وكان عالم مصر فى ذلك الزمان ، هو تلك الأبنية الصاعدة فى التاريخ ، أبنية عرقية قومية ثقافية وحضارية ، هى الأبنية العربية والآشورية والبابلية والفينيقية والزنجية ... الخ ، عمل قانون التفاعل عمله وأثمر ثمراته الطيبات ، فكان التأثير والتأثر والاعتماد المتبادل ، وتشهد التواريخ العلمية بذلك ، تاريخ اللغة وتاريخ العقائد وتاريخ الفنون وتاريخ الخبرات التقنية والمعارف العلمية . لقد شهد ذلك العالم فى ذلك الزمان صعودا حضاريا فريدا كان المهاد الحضارى لما بعده من عصور وأزمان . كان تفاعل العناصر المكونة للذات المصرية صحيا ، ومن ثم كانت علاقات مصر بعالمها صحية بانية ، لكن ذلك العالم القديم أخذ - لأسباب كثيرة لها مصادرها - يعرف التوازن المختل ، وكانت آية الاختلال المباشرة الظاهرة خروج الأجناد فى

عمليات عسكرية ، للغزو والتوسع والفتح . كان هذا الأمر نذيرا بخطوات مبكرة لأقول ذلك العالم ، بيد أن العوامل الثقافية كانت أقوى من النزوع إلى الانفراد ومن العى إلى القهر فانتقلت الصياغة الثقافية المصرية إلى آفاق ذلك العالم القديم ، متفاعلة مع أبنيته العرقية والثقافية وخبراته الحضارية الصاعدة ، وكانت الثمرة ذلك العالم القديم كله : لغة وفنا وتقنية ومعارف .. إلخ ، وعندما جاء الإسلام ورث ثمرات التفاعل فى العالم القديم وقوى حركته وامتد به ليشمل أبنية ثقافية حضارية جديدة حتى اتسع العالم الذى أداره الإسلام ليضم مساحات شاسعة من القارات القديمة الثلاث ، لقد ضم عالم الإسلام - زمن ازدهاراته - الثقافات والحضارات والأعراق قديمة وصاعدة ومستجدة ، واعتمد التفاعل نهجا أصيلا ، وكما كانت مصر ، واسطة العقد فى تفاعل أبنية العالم القديم ، فإنها ظلت فى ذات الموقع فى تفاعل أبنية العالم الذى أداره الإسلام فى عصور صعود حضارته ، ومن ثم صارت العناصر الكبرى المكونة للجماعة المصرية : الفرعونية والمسيحية والإسلام ، لكن عوامل تاريخية كبرى تلتبس فى مصادرها - قد أخلت ذلك كله ، فضاقت عالم التفاعل الرحب ، وخمدت حركته ، بل لقد توقفت عملية التفاعل وقام مقامها نقيضها ، عملية النفى ، وبدهى فى عملية النفى أن تكون الغلبة للغالب القوى ، وكانت ديار الإسلام قد غلب عليها أقوام وقبائل غليظة ، فقنمت هذه الأقوام والقبائل الإسلام فى قراءاتها الضيقة ، وأنكرت ما عداها من العناصر المكونة للذات : جمدت الطاقة الغنائية المتفتحة ، وحلت الطاقة الضيقة المنغلقة ، فبرزت القراءة النقلية المتأخرة للتاريخ : قراءة تتكرر وتوارى مدخر آلاف السنين من العمل الحضارى ، وحركة آلاف السنين من التفاعل الإنسانى . هاهنا توقف دور مصر فى ذاتها وفى علاقاتها ، وفى داخلها وفى خارجها ، والمسمى المصرى الجوهرى فى تاريخ النهوض المصرى إلى وحدتها بكل عناصرها الثقافية والاجتماعية ، وتخلقت حول هذا المسمى قوى اجتماعية وتيارات واتجاهات ومدارس فكرية وإبداعية وعلمية وسياسية ، ورشح التاريخ المصرى الحديث أربع قوى تتصدر هذا كله : قوى الليبراليين والاشتراكيين والسلفيين والقوميين . ونازلت هذه القوى هيمنة الأجنبى واستبداد الحكم الداخلى ، وراحت هذه القوى تصوغ برامج

ومناهج ورؤى لتحقيق غايات النهوض ، بيد أن تراث التأخر الطويل لا يزال يعطل عمل هذه القوى : لا يزال عملها في ظل النفي والإنكار وتبادل الأخطاء ، ولا تزال كل قوة تعلم على أنها (الشعب) وعلى أن غيرها محدود الوجود أو دخيل ، وفي هذه السنوات الأخيرة من هذا القرن العشرين أعلنت كل هذه القوى - بعد استخلاص العبر والدروس من معارك التناحر والنفي التي ألحقت بالبلاد الهزائم والمصائب - ضرورة العمل المشترك والتفاعل الصحيح . لكن يعطل هذا صحة التفاعل وسلامته أن كل قوة لا تزال على اعتقادها بأنها (الوطن) وأن للتفاعل مؤقت عابر ، وأنه سينتهى إلى غابتها وظهورها وانفرادها . لكن الحاصل أن الآمال قد تفتحت على تفاعل يفضى إلى ميلاد قوى جديدة بغير حصر ، تقوم بعملها مؤسسات على أصول العصر ، وهذا - يقينا - مستقبل مصر ، ولكن مستقبل مصر - وأى بلد آخر - إن يكون بعيدا عما يجرى من تشكيل نظم جديد للعالم ، ثمرة لهذه التغيرات العميقة الهائلة التي نراها اليوم . يرد ذوو البصائر المأزق المصري لراهن إلى جملة من العوامل - بعضها أصول ، والآخر فروع بعضها جذور ، والآخر ثمرات بعضها أسباب ، والآخر نتائج - اجتمعت معا فعملت نهضة مصر وانتهت بها إلى أن تكون مجتمعا (معوقا) يملك إمكانات التقدم بيد أنها مهذرة ، ويملك أعضاء العمل بيد أنها شائلة مقيدة !

مأزق تاريخي تعيشه مصر يجد تجلياته في كل مناحي حياتنا ، ويرى ذوو البصائر أن المخرج من المأزق إنما يتبدى في التغيير العميق والإصلاح الشامل . إلى هنا والقول واضح البيان مضى ، ذلك أن الجميع يرون إعادة بناء الوطن على أسس جديدة تضع السياسات وتحدد العلاقات وتحكم المعاملات وتصوغ الحقوق والواجبات. لكن الأمر يتعثر عندما تظهر مقولات تتناحر حول ما تسميه (أولويات): تذهب مقولة إلى أن الأولوية للإصلاح السياسى ، والشأن عند أصحاب هذه المقولة أن دستورا عصريا جديدا وقوانين ضامنة للحريات الأساسية والسياسية خير سبيل إلى هزيمة التخلف وأقوم طريق إلى التقدم ، وتذهب مقولة إلى أن الأولوية للإصلاح الاقتصادى

. والشأن عند هؤلاء أن إعادة توزيع الثروة حسب مبادئ عادلة وتحرير العمل والإنتاج والسوق أساس صالح للإصلاح الشامل .

وتذهب مقولة ثالثة إلى أن تأسيس بنية تعليمية عصرية قوية تعتمد بالأسول التربوية الجديدة وتنهض على التأهيل والتدريب حسب نتائج العلم المعاصر وتطبيقاته، طريق أول إلى البنية الاجتماعية المنشودة المتماسكة الساعية إلى النهوض والتقدم وربما أشرنا إلى مقولات أخرى ومذاهب أخرى فى رؤية الأسس الجديدة التى تروم إقامة حياتنا عليها ، فثمة من يرى الأساس للصالح فى التنوير ، وثمة من يراه فى الإصلاح الدينى وثمة من يراه فى الإصلاح الأخلاقى ... الخ ، مرحى مرحى، تحية لكل اجتهد وسعادة بكل نظر. بيد أننا نرى أن كل مذهب من المذاهب السالفة الماثلة فى حياتنا للعلماء بعامة ، وفى حياتنا الفكرية بخاصة قد وقع على شىء من المأزق ، وغابت عنه أشياء واهتدى إلى وجه من المخرج وغامت لديه وجوه ، بيد أن الأسس الجديدة لحياتنا فى الحال والمستقبل لابد أن تنهض على قاعدة واحدة عريضة مكنية هى الإصلاح الثقافى ، والإصلاح الثقافى أساس كل إصلاح ، وهو قاعدة للتغيير العميق والبناء الجديد . ذلك أن الإصلاح الثقافى بمعنى الشامل - الذى نقصد إليه هنا - يفسر تاريخ الجماعة ليحدد قانون ماضيها وليضئ حقيقة حاضرها وليستشراف أفق مستقبلها . إنه بهذا التفسير يصوغ هوية الجماعة ويبين دورها فى التاريخ البشرى، وهى بوعيتها بهذا الدور تنهض بمبادراتها فى حاضرها ومستقبلها فى عالم اليوم وعالم الغد القريب والبعيد ، والإصلاح الثقافى فى الشامل يخضع (البنية المفهومية) للبحث والنظر والمناقشة والدرس ، لتصح المفهومات الأساسية فى الوجود البشرى (الكون ، العلم ، الفن ، الحياة ، الموت ، الدين ، الرسالة ... الخ) ، والمفهومات الأساسية فى النشاط البشرى (المجتمع ، العمل ، العلم ، الفن ، الفكر ، الخ) ، والمفهومات الأساسية فى العلاقات البشرية (الحكم ، الدولة ، السياسة ، السلطة، الحق ، الحرية ، القانون ، الأغلبية والأقلية .. الخ) والمفهومات الأساسية فى الحياة البشرية (الأسرة ، الزواج ، الحب ، الجنس .. الخ) والإصلاح الثقافى الشامل يهز (البنية الذهنية) الموروثة لدى الجماعة ويتصدى لعناصر التخلف بها بالنقد

والتعديل والتقويم والتغيير لتتنصب ناهضة تقوم بالتجريب والبحث والتفكير والتعقيل . والإصلاح الثقافى الشامل يهز (بنية القيم) الموروثة لدى الجماعة ، ويتصدى لعناصر التخلف بها بالنقد والتعديل والتقويم والتغيير ، لتتنصب ناهضة قيم المواطنة والعمل المؤسسى والعمل المنتج والعمل العام . والعمل الثقافى الشامل يهز (بنية التجميد والتثبيت والمحافظة) الموروثة لدى الجماعة ويتصدى لعناصر التخلف بها بالنقد والتعديل والتقويم والتغيير ، لتتنصب ناهضة قيم الكشف والتجديد والابتكار والإبداع ، وخطه هذا الإصلاح الثقافى الشامل - كما نراها - إنما تنهض على محورين لازمين.

المحور الأول مؤسسى تنظيمى . مصر - باصطلاح عالم اليوم وعلمه - ليست بلدا متقدما أى أنها تحصل منجزات الثورة الثانية - الصناعية - ما يجعلها تؤسس عملها وإنتاجها على علم اليوم وتطبيقاته ، وما يجعلها تؤسس نشاطها وحياتها على ما يقوم عليه المجتمع المتقدم فى خدماته وتنظيماته . كما أن مصر - بالاصطلاح ، أيضا - ليست بلدا متخلفا ، أى أنها ليست بذاتها وصفاتها عاجزة عن أن تقيم مجتمعا ناهضا متقدما ، ولقد قطعت شوطا غير منكور فى التاريخ الحديث - دعك من التاريخ القديم الخالد - فى هذا السبيل . إنما مصر - على الحقيقة - بلد (معوق) ، يملك الإمكانات والثروات والكادرات التى تحله المحل العزيز فى عالم اليوم وتؤهله لدور المشارك المقتدر فى بناء العالم الجديد ، بيد أن كل هذه الإمكانات والثروات والكادرات بين مهدر ومبدد ومهدد ومقيد .. وآية الآيات فى هذا القول الأخير أن مصر - لأسباب جمة يمكن رصدها ، ودرسها فى غير هذا المقام ولدينا فى هذا الرصد والدرس اجتهادات طيبة - قد فشلت فى بناء مؤسسات المجتمع الحديث. إن المجتمع الحديث المؤسسات وتعنى بالمؤسسة الوعاء القانونى التنظيمى الذى يصوغ وظائف العمل العام وغاية ، وينظم أداء هذا العمل وآلياته ، حكوميا وأهليا ، فى كل منحنى ونشاط من حياة المجتمع وننص هنا على أن المؤسسة - اجتماعيا - عامة نهضت بها الإدارة الحكومية أو نهضت بها جماعة الأهلية ، ولقد نصصنا على أن مصر قد فشلت فى إقامة هذه المؤسسات لعوامل مشتركة عامة أشرنا إلى ضرورة رصدها ودرسها ليستقيم شأننا ، لقد أقمنا المؤسسات الحديثة ، لكن

هذه العوامل العامة عطلت عملها بأضعاف بعضها وتخریب بعضها ، وتهديم بعضها ، وثمة عوامل خاصة فى هذا التعطيل ، فلقد عطلت البيروقراطية المؤسسة العامة الحكومية ، ولقد عطل الاستبداد السياسى المؤسسة العامة الأهلية ، فإذا كان الشأن كذلك - وإنه كذلك بالفعل - نصصنا هنا على أنه شأن ثقافى بالدرجة الأولى نعم هناك المعطل التاريخى من أوضاع ذاتية متواترة فى تاريخنا ومن علاقات دولية معلومة ومن أوضاع عالمية ماثلة حولنا ، وهناك المعطل السياسى من احتكار إدارة شئون البلاد ، ومن استبداد ، ومن حرمان أطراف العملية الاجتماعية من العبارة السياسية عن مصالحهم ، وهناك المعطل الاقتصادى من تبديد للثورة وخلل فى توزيعها ، ومن هدر للطاقة ومن عادات متخلفة فى العمل والإنتاج ... ولابد لكل ذلك من علاجات وسبل تصد وسياسات ، حتى يستقيم شأن البلاد على نهج غير ذى ، والذي يصوغ مناهج كل تلك السبل والسياسات إنما هو الإصلاح الثقافى كما سلف فلقد ذكرنا أن الإصلاح الثقافى قاعدة الإصلاح الشامل وأساس البناء الجديد ذلك أن الإصلاح الثقافى يضع منهج التطور الديمقراطى السليم ، ويوضع مبادئ العلاقات ومعايير الحكم والسياسات فإذا كانت كل وجوه النشاط العام - فى أى مجتمع حديث - لا تنهض بغير مؤسسات حكومية وأهلية ، فإن الإصلاح الثقافى هو الذى يحدد أسس بناء هذه المؤسسات وآليات عملها وقيم غاياتها ومعايير تقويمها ، نعم أدوار معلمة - ومطلوبة - لأهل الاختصاص فى إقامة المؤسسات النوعية ، لكن تأسيس المؤسسة العصرية اليوم مهما يكن من أمر نوعيتها وتخصصها - شأن ثقافى أساسى ، ينهض بخطته أهل الفكر والرأى والنظر والبحث من أصحاب علوم المستقبل . إن النظر المستقبلى اليوم يضع المؤسسة النوعية داخل شبكتها من مجموع مؤسسات المجتمع ، حتى يتم التماسك الاجتماعى ، ويصبح العلم العام الجماعى ويفعل ، وينضج الرأى العام وينشط ، وتسطع خطط المجتمع وسياساته وتبين له سبله وغاياته ، وما دام هذا العبء الباهظ من شأن الإصلاح الثقافى ، فلا بد من وقفة خاصة عند المؤسسات الثقافية التى تنهض بهذا العبء وتقوم به وعليه ، وهنا نرى المؤسسات الثقافية تتسع أوعيتها لتضم حقول الإبداع والآثار والتعليم والإعلام .. الخ ، ولقد تأسس مؤسسات

ثقافية حكومية احتكرت إدارة كل ذلك على مدى العقود الأربعة الأخيرة ورأينا ثمرات هذا الاحتكار، وهى ثمرات من تكن - فى مجملها - صحية ، ولا طيبة فى كافة هذه الحقول الثقافية ولن نخوض فى بيان ذلك الآن، إنما نحن مشغولون هنا بالإصلاح الثقافى بنظر مستقبل . وعندنا أن تتصرف المؤسسات الثقافية الحكومية - باسم المجتمع - إلى ما لا يستطيعه سواها من الأفراد والجماعات الأهلية : جمع المروث من مرقى ومخطوط ، ومطبوع ، وفهرسته وتصنيفه ، وتوثيقه وتحقيقه ونشره ، خدمة للدارسين والباحثين والعلماء . جمع المائل الباقي من الآثار ، وتدوين المعلوم عنه ، وصيانتة ، وحفظه فى مناطق أثرية مخدومة ومتاحف منظمة حديثة ، عمل المعاجم ودوائر المعارف والتواريخ العامة الجامعة للأدب والعلوم والفنون من إبداعات الأمة . إتاحة الخوالد الفنية والأدبية من الموروثات الإنسانية الباقية للكافة ، تأسيس المعاهد الحديثة لتعليم الفنون وتدريب الفنانين ، مكافأة المتفوقين من المبدعين، علماء ومفكرين وأدباء وفنانين ، الخ ، وليس من شأن دور المؤسسات الثقافية الأهلية، ننص باستقامة الرأى على أن الإصلاح الثقافى لا يمكن أن يقوم بعبء النقد والتوجيه والتقويم والتخطيط - قاعدة الإصلاح الشامل والبناء الجديد - إلا بحرية إقامة المؤسسات الثقافية الأهلية من أجهزة ومحطات إذاعية وتليفزيونية، ومن صحف ودوريات ومن دور نشر ، ومن مؤسسات تعليمية وجامعات ، ومراكز بحث ، ومن أندية وجماعات وجمعيات ونقابات واتحادات ... الخ . إن تحرير الجانب المؤسسى التنظيمى فى الميدان الثقافى أساس أول ليكون الإصلاح الثقافى قاعدة الإصلاح الثقافى قاعدة الإصلاح الشامل وأساس بناء الوطن المصرى .

والمحور الثانى فكرى تنظيمى . ها هنا الجهاد الأعظم . ذلك لأن هذا المحور من الإصلاح الثقافى غايته بيان وحدة البناء التاريخى للوطن المصرى فى كل ما وعته الحافظة الطبيعية والبشرية من سبعة آلاف عام إلى الحاضر المائل فى هذه الأيام : من تشكيل فراغ من طراز معمارى ، ومن تشكيل كتلة على منحوت وتمثال ، ومن تشكيل الضوء والنور والظل فى مصورات ومن مرقى متواتر ، ومن مرقى باق ، إن ما وعته الحافظة الطبيعية البشرية ودونته يشير بثبات إلى أول وحدة

مجتمعية عرفها تاريخ البشرية ، وبدهى أن هذه الوحدة قد مرت فى تكوينها واستمرارها ونضجها بمراحل وأطوار ، وعرفت عوامل الصعود والخمود والنهوض ، وأسباب القوة والازدهار ، وأعراض الوهن والانكسار ، بيد أنها فى كل حال لم تنقسم ولم تتبدد ، منذ فجرها ذاك الباكر إلى يومها هذا الحاضر . وكونت هذه الوحدة أول مركز لحضارة العالم القديم ، ثم العالم الوسيط يخرج من هذا المركز إلى العالم القديم ما أنتجته هذه الوحدة من (فكرية) غير مسبوقة عن الإنسان ، والكون ، والله ، ويستقبل هذا المركز ما وصلت إليه الشعوب المحيطة من نظر ومعرفة ، خرج من هذا المركز أول نظر لما فى فلسفة اليونان وهدى الأديان واستقبل هذا المركز ما نما فضمه إلى ما تضمنه واعيته منذ كان الإنسان . فى حركة الإرسال والاستقبال تعددت العناصر المكونة لوحدة الوطن المصرى ، ونهض عمل هذه العناصر على قانون واحد مطرد هو التفاعل ، تعددت العناصر الدينية والثقافية والعرقية وتفاعلت فى قلب الوحدة التاريخية المجتمعية المصرية ، كانت مصر قد صاغت أول أسس الميتافيزيقا فلما نضج الأمر فى فكر اليونان وجد محله الحق فى قلب البناء الثقافى المصرى ، وكانت مصر قد صاغت أول أسس النظر الدين ، فلما نضج الأمر - فى اليهودية والمسيحية والإسلام - وجد محله الحق فى قلب البناء الثقافى المصرى .

إن قانون التاريخ المصرى يجعل مراحل هذه التاريخ تتفاعل متعاقبة بغير انقطاع مكونة وحجة هذا التاريخ ، كما يجعل عناصر البنية المجتمعية الثقافية المصرية تتفاعل فينتج التعدد وحدة هذه البنية ، وملحوظ أن أزمان القوة والازدهار فى التاريخ المصرى كانت ثمرة لصحة التفاعل وتوازنه بين مراحل هذه التاريخ بحيث لا تغلب مرحلة على أخرى ، كما أن أزمان الصحة والسلامة فى البنية المجتمعية الثقافية المصرية كانت ثمرة لصحة التفاعل وتوازنه بين العناصر المكونة لهذه البنية بحيث لا يغلب عنصر على آخر وينفيه ، أنا أزمان الوهن والانكسار فى التاريخ والبنية المجتمعية المصرية فكانت ثمرة الخلل فى آلية التفاعل بحيث تسعى مرحلة إلى نفي أخرى ، وبحيث يسعى عنصر إلى نفي سواه ، وثمة شاهد ماثل من تاريخنا الحديث والمعاصر : فى زمن النهوض المصرى المحلى - بعيد ١٩١٩ -

سعى تيار إلى تقديم (الفرعونية) تقديماً يوهن من شأن المراحل الأخرى فى التاريخ المصرى . وفى زمن النهوض المصرى الإقليمى - بعيد ١٩٥٢ . سعى تيار إلى تقديم (العروبة) تقديماً يكاد يقطع ما قبلها من مراحل التاريخ المصرى .

والشأن أن حقيقة الوجود المصرى فى التاريخ فى وحدة مراحلها دون قطع أو قطيعة ، وأن تماسك البنية الثقافية المجتمعية المصرية فى وحدة عناصرها دون قهر أو وقية ، إن السعى إلى تقديم مرحلة من مراحل التاريخ المصرى على سواها هدر نمغزى هذا التاريخ ، وأن السعى إلى تغليب عنصر من عناصر المجتمع المصرى - بسبب الدين أو العرق ... الخ ، هدم لهذا المجتمع . لقد اهتدت المبادرة المصرية فى التاريخ الإنسانى إلى أول فكرة ميتافيزيقية ودينية . وإعادة بناء التاريخ المصرى بكل مراحلها وبكافة عناصره ، وإعادة قراءته وتفسيره وبيان قانونه ، كل هذا يؤهل مصر اليوم لأن تهتدى إلى أيديولوجيا يفتش عنها البشر وهم يبنون نظامهم الجديد .

أهم المراجع :

- ١-الوقائع المصرية ، عدد ٢٨ نوفمبر ، ١٨٨١م .
- ٢-تاريخ محمد عبده ، ج١ ، ص ٨٩١ .
- ٣-محمد حسين هيكل ، تراجم مصرىة غربية ، ص ١٦٢ .
- ٤-الجريدة ، عدد ٢٦ ابريل ، سنة ١٩٠٨م .
- ٥-تاريخ محمد عبده ، ج١ ، ص ١٠٠٧ .
- ٦-تحرير المرأة ، ص ١٢ .
- ٧-للرأة الجديدة ، صفحات ١٨٣-١٨٥-١٨٦ .
- ٨-أحمد لطفى السيد : قصة حياتى ، ص ١٥١ .
- ٩-أحمد لطفى السيد : آراء فى السياسة ، ص ٢٠ .
- ١٠-طه حسين ، مائة عام من النهوض العربى ، لمجموعة من الباحثين ، بإشراف عبد المنعم تليمة ، والقاهرة ، دار الفكر ١٩٨٩م .
- ١١-طه حسين : المجموعة الكاملة ، بيروت ، المجلدان : الخامس ، السادس عشر .

• • •